مرقس ١٠، ٣٢-٤٥

١ **الأحد الخامس من الصوم** (مريم المصريّة)

المُمتعِ أم المُتعِب !

"ها نحن صاعدون إلى أورشليم..."

يتّضح لنا من النصّ الإنجيليّ أنّ الربّ يسوع أراد أن يكشف عن المفارقة الكبيرة بين فكره وفكر العالم، بين درب تلاميذه ودروب أهل العالم. أسياد العالم يتسلّطون على البشر بينما يجب على المتقدّمين من تلاميذه أن يخدموا المفارقة لا تحمل حلاً مغايراً فقط، بل معاكساً تماماً. فالنصّ على لسان الربّ يقلُب "أن يُخدَمَ" إلى "أن يَخدِمَ"، و"السيّدَ" إلى "عبدٍ"، والأولَ "المتقدم" إلى الخادم "الأخير".

لَمّا كان فكر المسيح هو الحقيقة فإنَّ ما هو عكسه، فكر العالم، هو بالطبع الخطيئة. والخطيئة في لغة الكتاب المقدّس هي أكثر من حدث خاطئ أو خطأ ما. هناك الزلات وهي أخطاء لا ننجو من بعضها على دروب الربّ. أمّا الخطيئة فمعناها أشمل، إنّها الخطأ في التوجّه بالذات، إنّها الخطأ القائم في العلاقة بيننا وبين الله (وليس أيّ خطأ ما تجاه هذه العلاقة)؛ فالخطيئة هي الفهم الخاطئ عن الله، وموقف خاطئ لأنفسنا تجاهه وتجاه القريب. خطيئة مثلاً تجاه الله، أن نعتبره عكس ما يعتبر هو ذاته، وأن نفرض عليه علاقة لا ترضيه. خطيئة مثلاً أن نحبس الله في قفص الاتهام ونسميه قاضياً أو لا مبالياً بنا أو سبباً للشرور، وهو بالواقع عكس ذلك. إنّه المحِبّ للبشر والراعي والآب الأب. خطيئة تجاهه أن نفسد علاقتنا بأنفسنا. كذلك خطيئة تجاه ذواتنا، أن نعرِّفها بعكس حقيقتها، وأن ندفعها إلى دروبٍ لا توصلها إلى غايتها، أي إلى السعادة. خطيئتنا تجاه ذواتنا أن نسعى بها إلى لذّة لا تترك إلاّ الألم، وأن نهرب بها من دروبٍ لا تقود إلى السّلام.

يدعونا القدّيس مكسيموس المعترف لنميّز بين اللذة والألم الحقيقيّين، وأن نعرف فعلاً ما هو الممتع وما هو المُتعِب. خطيئتنا نحو أنفسنا أنّنا نغشّها، فنركض بها وراء الممتعات السهلة ظانّين أنّها لذّة حقيقيّة فنجد بعدها أنّها لا تترك لنا سوى اللوعة. خطيئتنا إذن هي أنّنا نناول أنفسنا ممتعاً، غاشاً

ورخيصاً، فيبقى لها متعباً. هذا هو "فكر العالم"، إنّه يركض وراء المتعة الرخيصة والسهلة. القدّيس اسحق السرياني يوصينا بأن نحبّ التعب، على عكس فكر العالم الذي ينصحنا بحب الراحة والرفاهيات... هذه هي الخطيئة في جوهرها.

وهذه هي التجربة البشريّة الدائمة، التي غلبها الربّ حين خاطب الآب قائلاً، لتكن مشيئتك لا مشيئتي، وقَبِل الكأس التي كانت له. كان المسيح يدرك تماماً أنَّ أورشليم العلويّة التي يقصدها تمرّ حتماً من جلجلة أورشليم الأرضيّة. عن هذه المسيرة إلى أورشليم حاول بطرس مرّة أن يمنعه، فقال له يسوع: "أبعدْ عني يا شيطان". المجد ليس ما يأتي من المتعة وإنّما المجد الحقيقيّ يأتي من أتعاب الفضائل. والمتعة الحقيقيّة تأتي من صليب التضحية. "عبد الربّ" هو سيّد الأسياد وملك الملوك، آلامه هي مجده. ألم يحاول الشيطان من البداية أن يعرض على يسوع الدنيا كلّها شريطة ألاَّ يدخل إلى مجد آلامه قائلاً: "اسجدْ لي وأعطيك هذه الممالك كلها"؟ هذه هي صنارة الشيطان التي تصطادنا دائماً، وإلى تلك الدرب المقدّسة يدعونا الربّ يسوع؛ درب الآلام والبذل بدل السهل من المصلحة واللذّات... التلاميذ أنفسهم، عند التجلّي، رغبوا بأمجاد السماء فأخبرهم الربّ أنّه من جبل التجلّي سيتّجه نحو الجلجلة. وهنا، بالنصّ الذي سمعناه، سقط يعقوب ويوحنا في هذه التجربة بالذات، أرادا المجد قبل أن يدفعا ثمنه من التضحيات، والميتات، والآلام...

درب القيامة تمرّ بالصليب، واللذّة الحقيقيّة هي الآتية دائماً من أتعاب الفضائل. راية الظفر يوم القيامة سيكون عودُها هو خشبة الصليب ذاتها. خطيئة الإنسان وتجربته الدائمة هي أن يتناول اللذّات الدنيويّة المرميّة أمامه بسهولة بدل أن يتعب من أجل النعم والخيرات المنشودة.

لكن الخطيئة لا قوام حقيقيّ لها. الخطيئة واهية، لأنَّ الإنسان الصادق مع ذاته حين يتناولها ويدرك أنَّ لذتها عابرة يكتشف للحال خداعها. الإنسان كائن يحبّ المطلق ويكره الطرق المسدودة. وهذا هو حقّ إلى حدّ أنَّ "الله يسخّر كلّ شيء لخير الذين يحبّونه" (رومية ٨، ٢٨) نعم كلّ شيء؛ حتّى الخطيئة. اكتشاف كهذا سهلٌ لكلّ إنسان صادق مع ذاته، وكافٍ ليقوده إلى درب أورشليم الصحيح. أليست هذه هي حركة التوبة؟ اللذّة الحقيقيّة هي ثمار الروح القدس، والمتعة هي دموع الرجاء في التوبة.

هذا ما جرى بالذات مع القدّيسة مريم المصريّة التي نقيم تذكارها اليوم، في الأحد الخامس من الصوم، قبل أن نتجه في الأحد القادم، أي الأحد السادس من الصوم، إلى أورشليم. هذه المرأة غارت في لجج اللذّات حتّى العمق، لكن الخطيئة ليست طعامَ الإنسان، لذلك هي واهية. تمادت المصريّة في الخطيئة لكن الطريق كان مسدوداً. فقط حين عاشت، - وكما يقول التقليد- أربعين عاماً في البرية لم يعد لهذا الطريق من حدود. الفضيلة فقط تبدأ دون نهاية، لأنَّ الفرح الناتج عنها حقيقيّ.

نحن، الصاعدون إلى أورشليم العلويّة، علينا أن نستعد فعلاً للمرور بأورشليم الأرضيّة ودرب الآلام لنبلغ إلى القيامة المجيدة. الوقفة اليوم عند مثل القدّيسة مريم المصريّة، والتأمّل في التجربة الإنسانيّة التي وقع فيها يوحنا ويعقوب، هما دعوة إلى خوض المتبقّي من الصيام المبارك كحلبة جهاد وتضحيات. القيامة ممكنة فقط للمصلوبين. الصليب هو المجد، وهل للمسيحيّ مجد أعظم من أن يشارك سيّده في أتعابه؟

يقترب منا أسبوع الآلام وتتّضح أكثر دعوتنا إلى أتعاب الفضيلة، إلى الجهاد، إلى النسك، إلى المحبّة والصدق.

حقّاً إن الممتع من فكر العالم هو المُتعِب،

وأنَّ المُتعِب بفكر المسيح هو الممتع.

آميـــــن